

من صاحب العصور إلى صاحب الرسالة

أخي الأستاذ الزيات :

السلام عليك ورحمة الله ، وبعد فإنني أحمد الله إليك وأستعينه وأسأله لك التوفيق والسداد . أبيت أيها الرجلُ إلا كرمًا من جميع نواحيك ، فما كدت تستقبل العام السابع من عمر « الرسالة » حتى عُدت عليّ بفضل من ثنائك وحسن ظنك ، فذكرت « العصور » ثم أثبتت فأغنيت .

لقد وافتنى كلمتك ، وأنا بعدُ أنفض عن يديّ غبار « العصور » وأتخفف من أثقالها التي حملتها راضيًا غير كاره ، لأنقلب إلى هذه الغرف العزيزة التي نشأت في حجور الشيوخ من سكانها أستخبرهم علم ما أجهل ، وأستنبئهم أخبار ما مضى ، لأستوحى الظن فيما يستقبل ، وأجدد بعاديّ^(١) قوتهم قوة النفس التي لا تهدأ ولا تنام .

لا بد من كلمة - أيها الشيخ الجليل - وقد كان الصمت أولى بي وأحب إليّ . لا بد من كلمة أعتذر بها للذين استقبلوني بفرحة المحب أمتع باللقاء علي غير ميعاد . فأنت تعلم أني يوم عزمت على إصدار « العصور » لم أكن قد أعددت لها من مال إلا ما ادخرته في نفسي من جهد أعوام طالت في معاناة العلم والأدب ، وبقية من تخلق ضننت بها أن تذيع في أطرافها ونواحيها مهزعات العصر الحديث التي صرّفت الأخلاق في وجوه الغنى والضلال ، وأطلقت دزيّات الغرائز من عقال الشرائع ، وأرسلتها ترعى جحى أبي الله ورسوله أن يكون مرعى لمن آمن بالله واليوم الآخر .

ولكن لا بد من مال مَشْكُوكٍ معترف به ، مصدق على الاعتراف به من « محافظ البنك الأهلي » ، وإن قليل ما عندي من هذا المال لا يغني غناؤه في

* الرسالة ، السنة السابعة (العدد ٢٨٧) ، ١٩٣٩ ، ص : ٦٧

(١) العاديّ : نسبة إلى قوم عاد ، والعرب تنسب إليهم كل ما هو قويّ وعظيم وقديم .

عمل أوله استهلاكاً بغير نتاج وأنت أخبر بهذا الأمر . فلم يبق إلا الصديق الذى يعين على نوائب الحق ... فبدأنا إصدار « العصور » يُعولها الجِدُّ من قِبَلِي ، والعون من قبل الأصدقاء الكتاب من أصحاب مذهبنا ، والممدد من « جيب » الصديق الذى أبدى بشاشته ، واستظهرها بعاجل البر ، وبرزنا على اسم الله . فما كان إلا كلا ولا (١) حتى قلت كما قال الأول :

سعت نوب الأيام بينى وبينه فأقلعن مِنَّا عن ظلوم وصارخ
فإنى وإعدادى لدهرى « محمداً » كملتمس إطفاء نار بنافخ
وأبيت أن أخفض عن نفسى أو أزدَّ غُلَواءَها ، فرددتُ المالَ إلى صاحبه غير منقوص ولا مُهْتَضَم . وقلتُ إنَّ امرأَ قضاءه الله لا بُدَّ له من تمام وأجل ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وخيرُ الأمر أن ألجأ إلى الله ثم أستعين بما عندى على قضاء الحق الذى يقتضيه ما أقررت به على نفسى ، وما أقررتها عليه فى كلمة العدد الأول من « العصور » . فلم أبخل ولم أراجع ، وأقدمتُ على إصدار العدد الثانى مستبشراً مؤملاً راجياً معتمداً على ثقى بالله ، ثم ثقى بحسن التقدير الذى لقيته . فلم يلبث أن لقي العدد الثانى من « العصور » حفاوة الناس فى كثير من بلاد العربية ، ولكن هذه الحفاوة المستبينة فى بيع مجلة - تكاليفها أكثر من دخلها بهذا البيع - لا يمكن أن تكونَ هى الرقبة التى تجذب إلى رقاب المال من كهوف « البنك » فأحويها وأروضها وأنصرف فيها تصرف الناس فيما هم به « ناس » !!

وقلت : عسى أن يقضى الله لأمر ضاق بالفرج ، وتوجهت بقلبي إلى الله ، وبوجهى إلى من أتوسم فيه سمة « الخزانة » المُعدَّة لاحتيجان المال (٢) . ولكنى وجدت القفل بعد القفل على الخزانة ، وافتقدت المفتاح الذى يتسنى له كل مُغلق . إن هذا المفتاح ليس عندى ، ولستُ أملكه ، وما أحسبني أرتضى - بعد أن جرَّبْتُ - أن أملكه أو أحوزه . إنه لا يملكه إلا من قدّم رهينةً ، والخُلُق

(١) كلا ولا : أى لحظة قصيرة خاطفة ، أى بقدر الوقت الذى تستغرقه فى نطق هذين الحرفين .

(٢) احتيجان المال : إصلاحه وجمعه وضم ما انتشر منه .

لا يُعترف به فى باب الرّهائن ، ولست أملكُ غيره ، فلا رهينةٌ ، أى لا قَرْضٌ ولا معونة . وإنه لا يملك المفتاح بعدُ إلا اللصُّ الذى يلين له ما أُعْضِل من قُفْل غَلِق وأنا بحمد الله لم أُخْلَق على طبيعة السارق بل سُويْتُ على هيئة المسروق ، كلٌّ من شاء أن يأكلنى أكلنى ؛ قد رضيتُ أن أحوطَ جوهرى بالعَرْضِ المُضَيِّع . ومع ذلك فقد أعددت العدد الثالث للطَّبْع ، وتصرَّفْتُ فى وجوه التدبير ، ثم وُقِّعت إلى من أَرْضى عنه ويرضى عنى ... ولكن أبى خُلِق الدُّنيا معى أن يتم جميل تستودعنيه ، أو معروف تربيّه عندى . فرجعت غَودى على بدئى راضياً عن الله شاكراً لله واثقاً بالله ، أستعينه وأستحفظه ، وأشكره ولا أكفره .

لا أقول الله يظلمنى كيف أشكو غير مُتَّهم وأنا لا أزال أقول : يَصْنَعُ اللهُ ، يَصْنَعُ اللهُ ، إن لله تديباً يصرفنا به كيف شاء إلى مواقع علمه ومنازل حكمته . وأنا مذ كنت ، كنت مطية القدر حيثما وجهنى استقبلتُ المضيقَ والطريقَ بنفس مسلمةٍ وجهها لله ، بأن الزَّمامَ فى يد الله .

فإن تسألينى ، كيف أنت ! فإننى صَبورٌ على رَيِّبِ الزَّمانِ صَليْبُ
يعرُّ علىَّ أن تُرى بى كآبةٌ فيشمتَ عادٍ أو يُسَاءَ حَبيبُ

وعلى ذلك فأنا مُنتظِرٌ ، و« العصور » إلى جانبى تنتظِر ! وشكر الله لك ،
وجزاك خَيْرًا من صديق .

(الرسالة) تألم الرسالة أشد الألم أن يُبَيِّط هذا القلم البارِع وهذا الفكر الرشيد مشبطات المادة ، وتدعو الله مخلصاً أن يلهم أهل المال معونة أهل العلم حتى لا تتخلف « العصور » عن صفها فى الجهاد إلا ريثما تواتيها العدة . وعسى أن يضمن القراء بهذه الثروة الأدبية على الضياع فيعينوها على الصدور بإسلاف^(١) الاشتراك .

(١) الإسلاف : الإقراض الذى لا منفعة فيه للمقرض غير الأجر والشكر .